الإنســـــان
من التفكير الإعتيادي إلى الفكر الأسطوري

آيت أحمد نورالدين، أستاذ مساعد،
كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية،
قسم فلسفة، جامعة د/ مولاي الطاهر ،سعيدة

تعريف البحث والبحث العلمـــــي:

البحث لغة هو التفحص والتفتيش، وفي الاصطلاح هو إثبات النسبة الإيجابية أو السلبيـــة بيـــن الشيئين بطريقة الاستدلال[1]. وقيل البحث أيضا بذل الجهد في موضوع ما، وجمع المسائل المتصلة به، ومنه قولهم البحث العلمي، أي مجموع الطرق الموصلة إلى معرفة الحقيقة العلمية. وكذلك يقصد بالعلمي هنا: البحث المنسوب إلى العلم، حيث نقول المعرفة العلمية، والروح العلمية. ويطلـــق هـــذا الاصطلاح على العقل المنظم الواضح، الذي لا يسلّم بصدق حكم إلا بعد تحقيقه والتدقيق فيه وإقامة البرهان عليه[2].

لكن هل استعمل الباحثون الأوائل، أو بمعنى أدق الإنسان الأول في غابر العصور، طرق بحث سليمة، قائمة على أسس العلم والدقة ؟ أم عرفوا واستعملوا طرقا مختلفة، ولم يصلـــوا إلى الطـــرق الصحيحة إلا بعد أن استنزفوا رصيدهم وطاقاتهم ؟

إننا إذا وجدنا، في الواقع، الباحثين في شتى أصناف المعرفة ينادون اليوم بضرورة اعتماد الطريقة العلمية في التفكير، على اعتبار أنها، الطريقة المثلى لدراسة موضوعاتهم، فإن ذلك لا يعني بداهة أنها أول طريقة اعتمدها الإنسان منذ القدم، بل إن الإنسان لم يصل إلى هذه المرحلة، والمستوى من الفهم والإدراك إلا بعد أجيال وأجيال، كان الإنسان خلالها يستمد حكمه على الظواهر والقضايا بوسائـــل غير الوسائل العلمية المتاحة في وقتنا الحالي. ومن هنا ينبغي علينـــا أن نتعرف إلى مختلف الطـــرق التي عرفها، واستعملها الإنسان حتى وصل إلى الطريقة العلمية.

- طرق البحث وتطورها:

إذا حاولنا التعـــرف إلى الطرق التي اعتمدها الإنســـان منذ فجر البشريـــة في البحث عن حلـــول لمشكلاته، وإشباع حاجياته، فإننا نجد ما يلي :

1- طريقة العادات والتقاليد في التفكير لحل المشكلات:

لاشك أن الحياة البدائية المتوحشة، لم تكن بالهينة على الإنسان الأول، وكانت تحيط به من كـــل الجهات أخطار لا يستطيع التغلب عليها بالقوة، بل أخطار تبدو قاهرة تفقد الرشد وتسبب الشلل[3]. وإليك الدليل من تاريخ الفلسفةاليونانية حيث يقول أفلاطون على لسان بروتاغوراس وهو يصـــف عالم البشر قبل اختراع الفنون كالسياسة مثلا. " لقد عاش البشر في البداية متفرقين، ولم تكن هناك أية مدينة، أي دولة في لغة عصرنا، وكانـــت الحيوانات تفتك بهم دائما وفي كل مكان لأنها أقوى منهم، وكانت مهاراتهم التي تكفي بالكاد لتغذيتهم تعجز عن حمايتهم في حربهم مع الحيوانات المتوحشة"[4].

لكن بفضل تفرد الإنسان بملكة العقل، استطاع أن يتعايش معها، وهو مكره في ذلك لا مختـــــار، فأوجد طرقا وحيل لتوفير طعامه ولباسه ثم أخذ يورث هذه الخبرات فيما بعد لأبنائه، ويسمى هذا الشكل من التفكير بطريقة العادات والتقاليـــد في التفكير لحل المشكلات[5].

فقد أخذ الإنسان يرجع إلى العادات والتقاليد واستثمار كنوز الذاكرة على حد قول عالم النفـــــس الأمريكـــي وليام جيمس، التذكر يعني التفكير بشيء ما كان معـــاشا في الماضي، ولم نحاول نحن أن نفكر فيه قبل ذلك مباشرة[6]. إذن فقد ظـــل الإنسان، ولمدة طويلة، يعتمد على هذه المصادر لما توفره من رصيد معرفي ضروري لفلسفة الحياة وإدارة شؤونها، أما تبريـــر سبب كون هذه الطريقة في التعامل مع الطبيعة، هي الأولى والأقدم ضمن طرق الإنسان، فذلك راجـــع - في نظرنا- إلى سببين على الأقل:

- الأول: إن العادات تقدم كما هائلا من المهارات الجاهزة والمجانية التي لا تتطلب بذل الجهـــــد، والإنسان الأول- بل وكل إنسان- يرحب بمن يقدم له الحلول الجاهزة، فهي تغنيه من المغامـــرة وبذل الجهد.

- وأما الثاني: فهو مترتب عن الأول،حيث تختصر العادات وتلخّص المحاولات السابقة الفاشلـــة، وتنبّه للأخطاء المحتملـــة وتكّسبه وقتا ثمينا هو في مسيس الحاجة إليه.

إن العادة – وهي كل نوع من السلوك يكتسب عن طريق التدريب أو على حد تعبيـــر بول غيـــوم "العادات أو تغيرات السلوك المكتسبة، قريبة من التكيفات العضوية التي هي امتداد لها"[7]. يعني أن الإنسان يتكيف مع الطبيعة ويحقق توازنه مع محيطه، من جهة، بالعادات التي هي مجرد محاكاة وتقليد للكبار، ومن جهة أخرى، بما يملكه الجسد نفسه من قدرات خاصة في التأقلم مع الوضعيات الجغرافية والمناخية التي تسهل عليه وتؤهله لمواصلة العيش: فأبناء الصحراء أقدر على تحمل الحرارة الشديدة، حتى أن تكوين بنياتهم الجسدية مختلفة عمن سواهم،كما أن أبناء المناطق المتجمدة كذلك أقدر على تحمل البرودة الشديـــدة، بدليل أنك تجد أجسامهم منحوتة بصورة متميزة: ففتحات الأنف على سبيل المثال عندهم، أضيق ما تكـــون: لأنها توفـــر مرور كميات الأكسجين الكافيـــة للعيش، لكنها – وهذا غاية كونها ضيقة – تمنع تسرب الهواء البارد حتى تحافظ على السلامة والحياة. أي أننا نضيف لمعارفنا سلوكات جديدة، نكتسبها عن طريق التعلم والاحتكاك، كما أن أجسامنـــا هي الأخرى تكتسب طرق مقاومة جديدة تؤهلها للتكيف مع وضعيات سنجبر على العيش والتعامـــــل معها. وتجدر الإشارة إلى أننا نتكلم هنا عن المجتمع البدائي والطرق التي اهتدى إليها في تعاملـــه مع الطبيعة، حتى يحقق تكيفه وتوازن حياته معها.

لكن لنتساءل ماذا تعني المجتمعات البدائيـــة؟ ماذا يملك علمـــاء الأنتربولوجيا من اعتقـــــادات وتصورات عن ذهنية وطـــرق عيش الإنسان البدائي ؟

إن كان هناك اصطلاح يرتبط بالأنتربولوجيا دائما، فهو مصطلح البدائيـــة الذي يستعمل لوصف معلومات وجدهـــا علماء هذا التخصص في مختلف بقاع العالم.

فهناك دين بدائي، اقتصاد بدائي، شعوب بدائية ومجتمعات وثقافات بدائية. وتعرف كلمة بدائي عادة بما يتعلق بالبداية أو الأصل.

وفي بعض السياقات يعني المصطلح أيضا عدم كفاية الوسائل بالنسبة للأهداف، ولهذا علاقـــة بالمجال التكنولوجي خاصة، ولكن بالظروف الموجودة داخل مجتمع ما، وبالمفاضلة بين الثقافات فالعصا التي تستخدم للحفر– مثلا– بدائية بالمقارنة مع آلة مثل الجرار، والخيمة أو الكـــوخ بدائيان بالمقارنة مع البيت. . والنار العادية أو الطبخ الذي يستعمل الخشب بدائيـــان بالنسبة لآلات الطبخ الغازية أو الكهربائية،

وهذه الأخيرة ربما توصف، يوما، بالبدائيـــة عندما تقارن بآلات تستخدم الطاقة الشمسية أو الذرية[8].

وبهذه الطريقة استطاع الإنسان البدائي الأول، العيش والحفاظ على حياته ومقاومة كل أصنـــاف الأخطار وأشكالها، كما تمكن من التطور والإرتقاء حيث يكشف الأنتربولوجي الإنجليزي تايلور في كتابه الأنتربولوجيا 1881 أن الإنسان قد مر بالمراحل التالية :

1 – المرحلة الوحشية: وهي التي تتميز بالعيش على النباتات والحيوانات البرية واستعمال آلات العصر الحجري، واعتماد مشاعية العيش، أي الإشتراك في ملكية مصادر العيش.

2 – المرحلة البربرية: التي تتميز بظهور الزراعة والآلات المعدنية ونوع من الحيـــاة الجماعيـــة في القرى والحواضر مع ظهور الملكية الفردية.

3 – أما المرحلة المتمدنة: فهي التي بدأت عندما اكتشف الإنسان فن الكتابة [9] وســـــن القوانين.

وهكدا فبفضل ما يملكه الإنسان من ملكات استطاع تخطي تلك العقبات واستثمار تجاربـــه ورصيده المعرفي، لذا يقـــال أن استعدادنا على احراز التقدم يكمن في الطريقة التي نسوس بـــــها رأسمالنا من التجارب والخبرات، أي معرفة إعادة ما نجـــح عمله، وتعزيز المكتسب والنقـــــاط القوية، وتحديد المناطق غير الستثمرة، وعزل وتخطي العجز والتقصير.و بهذا الشكل يصـــح ويحق لنا أن نقول مع الشاعر الفرنسي بودلير حينما عبر عن أهمية الذاكرة والذكريـــات، وما تحفظه العادات من معارف وتجـــارب ماضيـــة يعتمدها الخلف أرضية وقاعدة لبناء حياة جديدة أكثر تطورا من تلك التي عاشها السلف: " إنه لدي من الذكريات أكثرمما لو كان عمري ألف عام "[10].

كما أن بعض الفلاسفة القدامى عبّروا عن هذه الطريقـــة الأولى في تعامـــل الإنســـان مع الطبيعـــة وخيراتها من جهة، وتعامله مع بني جنسه من جهة أخرى، بطريقة الفطرة السامية أو التلقائيـــــة المثالية، السابقة لكل تفكير وتأمل– والتي لم تدم طويلا– لتعقبها مرحلة الأنانية، وحب الذات، مـــا يؤدي معه إلى نشوب الحروب فيما بين الناس، وظهور شتى أصناف الشرور، الشيء الذي يستلـــزم اللجوء لاستعمال قدرات أخرى. يقول، في هذا الصدد، الفيلسوف الروماني سينكا: " في المجتمـــع البدائـــي عاش الناس معا بسلام وسعادة، وكان كل شيء مملوكا لهم على الشيوع، ولم تكن هنـــــاك ملكية فردية. ويمكننا

الاستدلال على أن العبودية لم تكن موجودة. وكذلك الحكومة المستبدة. وكان النظام على أحسن ما يرام لأن الناس اتبعوا الطبيعة بشكل حتمي، وكان حكامهم هم أكثرهم حكمة، وكانوا يوجهون الناس ويرشدونهم إلى ما فيه خيرهم. وكانوا يطاعون برضى لأن أوامرهم كانت حكيمة وعادلة، وبمرور الزمن اختفت البراءة البدائية، وأصبح الناس جشعين ولا يكتفون بالمتعة العامة للأشياء الجميلة في الدنيا، ورغبوا في أن يحتفظوا بهذه الأشياء لأنفسهم ويمتلكوها، ومزق الجشع المجتمع السعيد إربا إربا وحل الطغيان محل مملكة الحكماء واضطر الناس إلى خلق القوانين التي تقيد حكامهم" (11).

أنظروا لهذا النص، وحاولوا استنطاقه وتفكيكه، فستجدون العجب العجاب، كما أنه يصلح كوثيقة تاريخية يمكن استثمارها في التاريخ، الأنتربولوجيا، علم الاجتماع، السياسة الاقتصاد وغيرها. ولا يمكن ذكره من دون تعليق، ومن ذلك نجده يرصد مراحل تطور البشرية، ولو حاولت تبرير تلك المراحل، لقلت أن أسباب فترة السعادة أو' الأخوة المثالية ' التي عرفها الإنسان الأول، ترجع في جوهرها لمقياس العدد أو الكم. فعندما كانت الخيرات والثروات المتاحة في الطبيعة وفيرة، تكفي حاجة الجميع آنذاك، والذي كان قليلا بالمقارنة مع هذه الخيرات، لم يضطرالناس للصراع، ولم يخطر على بال أحدهم التسابق للحصول على الغذاء.لكن مع مر الوقت، وتزايد الغذاء بوتيرة حسابية في مقابل تزايد البشر بوتيرة هندسية، مما نتج عنه حالة عدم تكافؤ، عندها فقط شعر الإنسان بالخوف من الموت، فلجأ أولا للصراع من أجل الحصول على الغذاء المُتوفر في الطبيعة – وهو سبب ضروري للبقاء – ثم ثانيا للعمل وانتاج القوت كي يبقى، مثلما كشف العالم الإنجليزي ت ر مالتوس في كتابه عن السكان(12).

وعن نفس الحقيقة عبر الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو بكلمات جلية حيث قال: " وهكذا فإن بعض المجتمعات قد انقرضت بسبب ندرة الغذاء، وأن البعض الآخر من المجتمعات كانت ستلقى نفس المصير لولا أنها شرعت في العمل ".

أما الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز الذي تقوم فلسفته السياسية بكاملها على فكرة الخوف، إذ أن العام الذي ولد فيه سجل فترة حروب بين ملك إسبانيا فيليب الثاني ومحاولة غزوه لملكة إنجلترا إليزابت الأولى، ولا شك أن هذه الحروب،قد أثرت على الجميع بما في ذلك

أمه التي عانت هذا الخوف في فترات حملها وأنه أثر عليها سلبا، فكتب هوبز قائلا: "أنا والخوف توءمـــان"[13]. هذه الحالة النفسية ستتجلى وتنعكس على تفكيره وتخلف آثارا، منها إرجاعه صراع البشر فيما بينهم إلى الأنانية التي تقيم تصور الحياة الأخلاقية والاجتماعية على غريزة حب البقاء، التي تعد غريزة أساسية تتحكم في الوجود الإنساني ككل. إذ أن ما يميز الكائن الحي عموما سعيه المستمرللبقـــاء والحفاظ على حياته، لذا كان الإنسان أنانيا بالطبع[14].

هذه الغريزة أو الفطرة الشريرة التي في الإنسان، هي التي تدفعه للبحث عن سبل البقاء دون مراعاة لأي ضابط، تجعـــل الجميع يعيشون في الحالـــة الطبيعية التي سبقت كل أشكال التنظيمات السياسيـــة حالة من الحرب والصراع الشامل، صراع يقوم به كل إنسان نحو كل إنسان آخر، صراع من أجـــل المحافظة على النفس والسيطرة على الآخرين، إنها حرب الكل ضد الكل[15]. وحالة الحرب هـــذه لا يمكنها أن تسمح بالسير والتطور الطبيعي للحياة، بل إنها تعيقها وتعكرها، وكان لابد للإنسان أن يعيش، فلجأ مع غيره إلى إبداع حل يخرجهم جميعا من عنق الزجاجة، ويوفر لهم إطارا وأدوات بإمكانها السيطرة على كل محاولة تهدد الحياة والسلم. " إن أهواء الإنسان الطبيعية تجعل من حالـــة الطبيعة أمرا لا يطاق، ينبغي إذا تكوين المجتمع المدني للإفلات من الحرب المهددة باستمرار"[16].

إن الطبيعة البشرية إذا، تخفي أهواء ورغبات أنانيـــة ومنافع ذاتيـــة، لذا فإن اجتماعهـــم يتطـــلب تضحيات وتنازلات من طرفهم، وهو ما يتجلى في العقد الاجتماعي الذي يتعهد فيه كل إنســـان على ألا يساعد من يستحق العقاب وألا يقوم بما من شأنه أن يمس حرية الآخرين. فيظهـــر ما يمكـــن أن يدعى سيف العدالة الذي يفرض سلطته على الكل[17].

فهوبز إذن وزميليه – أصحاب نظرية العقد الاجتماعي – يتصورون السيناريو التالي لتطور الحياة: – حياة طبيعية: أنانية وصراعات.

– تنازلات: جزئية أو كلية للممتلكات.

– حياة سياسية: خضوع إرادي كلي لقوة القانون.

غير أن ما قاله هوبز، أي اعتبارالإنسان لا يختلف عن عالم الحيـــوان في شراستها وقتالها غيرها حفاظا على حاجياتها الحيوية إذ يقول: "إن الإنسان ذئب لأخيه الإنســـان"[18]، لذا فقد أبرموا ذلك العقد

لتحسين حياتهم، هو مجرد فرضيات أو مسلمات تعاني من النقائص التالية:

– إن فكرة العقد الاجتماعي فكرة خيالية لا تجد أي سند من الواقع، فالتاريخ البشـــري لا يعطينـــا أي مثال لدول أو مجتمعات نشأت عن طريق هذا العقد.

– كما أن هذه النظرية تقوم على افتراض وهمي خاطىء، وهو أن الفرد كان يعيش في عزلة قبل قيام الجماعة، وهذا غير صحيح لأن الإنسان بطبيعته كائن اجتماعي لا يطيق حياة العزلة [19].

لكن في نهاية تحليل عامل المعرفة التي تتم عن طريق العادات، نقول أن الإنسان بعد دهر طويـــل، تنبه لحدود هذه الحلول، أي العادات، فأدرك أنها وحدها لا تكفي، فهي لا توفر جميع الحلـــول لمـــا يواجهنا من أوضاع متجددة ومتشابكة لا حصر لها ولا عد. فهي تكشف عن عجزنا التـــام عـــــن التكيف حين نواجه أمراغير مألوف[20]. كما أن الذاكرة خادعـــة موهمة، ولا تحتفظ بكـــل ما يمـــر بساحة الشعور، بل لها أعراضا وأمراض تهددها كالنسيان، ومنها النسيان العـــادي: عندمـــا ينســـى الإنسان الذهاب إلى موعد ما، وهناك النسيان نتيجة صدمة فيزيائيـــة كالإصابـــة (أمنيزيا)، وهنـــاك النسيـــان الإرادي للأحداث والذي يسبب تذكرها ألما روحيا[21]. كل هذا القصور والعجز والحاجة الملحة والتطور الهائل للظروف الحياتية دفع إلى أن يتســـــاءل ويبحث عن حلول أخرى لمشكلاته.

2 – طريقة الكهنة والعرافين: (الفكر الخرافي والأسطوري)

لقد مارس الكهنة قديما، وحتى في العصور الوسطى بأسماء مختلفة كرجال الدين مثلا، سلطة على الشعب، فادعوا امتلاك الحقيقة المطلقة، وأنهم وكلاء عن الرب الذي أطلعهم على الغيب، وبهذا فلهم قدرة التدخل والتأثير في مصير ومجرى حياة البشـــر، ومن أجل ذلك فلقد إخترعوا شتى أصنـــاف الأضاليل والأباطيل لتبرير هذا التميز وهذا الاستحقاق.

كما أن البشر يملكون فاعلية عميقة هي ملكة التخيل الإنساني التي تحملنا على الاعتقاد بأنها تلتمس، خلال أجيال من الأحلام، طريقا للخروج من الغامض إلى الواضح، إنها تفرد بعض عناصر الغموض الأول، ثم تجمعها كي تحصل على صورة قد لا تكون أصفى، ولكنها هذه المرة أكثر وعيا وخضوعا للإرادة.هكذا ولدت الخرافات التي

كانت تسرد بصورة أسطورية[22]. أي أن الناس عندما يتوقون لتحقيق رغبات وأمنيات يعجزون عن نقلها إلى حيز الواقع الفعلي، فهم يستنجدون بعوامل خيالية يطعّمونها ببعض عناصر الحياة حتى يسهل على عامة الناس تصديقها، ثم يؤلفون مركبا جديدا، عناصره من الواقع لكنه ليس بواقع. وهذه المهارة التي تعتمد على المخيلة توجد لدى العلماء كذلك غير أن هؤلاء يستعملونها بقصد ونية إيجابيتين ويهدفون لجلب المنفعة للبشر وإسعاده لا استغلاله وتضليله، فيقومون باستعمال مهارة التخيل والتصور فيؤلفون صورا جديدة وإبداعات إعتمادا على الواقع أو انطلاقا منه لخلق أشياء جديدة لم تكن موجودة من قبل[23].

ولو عدنا إلى القاموس لوجدنا أن الخرافة: حديث لا أصل له، وهي تتضمن وصفا لأفعال الآلهة أو للحوادث الغريبة، وهي تختلف باختلاف الأمم، فلكل أمة خرافاتها[24].

لكن ما هو الجو المناسب الذي يسمح بنمو وازدهار الخرافات ؟ ومن الذي يضفي عليها طابع المصداقية ؟ إنه بلا شك: الجهل، أو بمعنى أصح الشعب الجاهل. بالفعل إن صاحب السلطان في الخرافة هو الشعب الجاهل، والحكماء تبع له في هذا السبيل، فهي تعكس وضع الأمور وتقلب عمل العقول[25].

إذن فلقد كان للعقلاء، خصوصا في غابر الأزمان، دور المتفرج لأنهم كانوا في موقع ضعف، بينما احتل العرافون والكهنة مواقع القوة إذ كثيرا ما نجدهم في بلاط الحكام الذين يحتاجون بدورهم لقوة هؤلاء لتضليل الشعوب وإقناعها. فمن المعروف أن بلاط الكثير من الملوك والأمراء كان يعتمد، في تصريف أمور الدولة، على العرافين والمنجمين، خاصة في الأوقات العصيبة كالحرب، والناس على دين ملوكهم على أية حال، وما يزال هذا الإرث ساريا بين الناس حتى الآن[26].

لنتساءل الآن عن الخرافة أو الأسطورة باعتبارها بنية لغوية. هل كل كلام يصلح ليكون خرافة أم أن هذه الأخيرة كانت من اختصاص فئة محددة ولها شروط بناء معينة ووقع موسيقي سحري إيحائي على الآذان؟ الأسطورة محاولة الإنسان البدائي لفهم وتطويع الطبيعة وتفسير الظواهر التي تتعلق بها[27]. الأسطورة ضرب من الشعر يسمو على الشعر بإعلائه حقيقة ما، ضرب من التعليل العقلي يسمو على التعليل بأنه ينبغي إحداث الحقيقة التي يعلن عنها، ضرب من الفعل أو

المسلكة الرسمية، لا يجد تحقيقه بالفعل نفسه، ولكن عليه أن يعلن ويوسع شكلا شعريا من أشكال الحقيقة[28]. أي أنها نضمت من قبل خيال بشري في شكل فني تارة، لكنها في كل الأحوال، تحمل معاني وقرارات لها علاقة بالمعتقد والآلهة حتى تحصل على صفة الإلزامية والنفاذ،فهي إذن تتصمن الوجوب من قبل طرف أو أطراف تجاه طرف أخر. وعليه فإننا نجد في الأسطورة الفرعونية أن اسم الشخص جزء جوهري منه، كأنه عضو منه أو بديل له، ولدينا عدد من الأقداح الفخارية الكبيرة نقش عليها ملوك مصر أسماء القبائل المعادية لهم، في فلسطين وليبيا. .. وكانت هذه الأقداح تحطم في احتفال ديني مهيب، والغاية من العملية: الدعوة بالموت على هؤلاء الأعداء، لأنهم بعيدون عن قبضة الفرعون. فكان المصريون يشعرون بأنهم يلحقون بأعدائهم أذى حقيقيا حين يجطمون أسماءهم، فيضيفون – بعد أسماء الخصوم الذين يدعون عليهم بالموت– عبارات كهذه: " كل فكر مؤذ وكل كلام مؤذ وكل أحلام مؤذية وكل خطط مؤذية وكل صراع مؤذ ". فكانت هذه الأمور، على الأقداح التي ستحطم، تنال – في ادعائهم واعتقادهم، من قدرتها الفعلية على إيذاء الملك أو تقليص سلطانه[29].

وتارة أخرى، يستغل أحد الأفراد جهل مجتمعه لكيفية حدوث الظواهر الطبيعية، فيدعي في (العلم فلسفة)، فيؤمن أهله ويعتقدون أنه متميز بهذا العلم والقدرة، فيعلنون ولاءهم وانقيادهم له. ومن ذلك أننا نجد الناس، قديما، قد ألبسوا ثوب الولايات والمعجزات لمن يخبرهم عن أمور خافية عن مدركاتهم. فعندما يشح المطر الذي تعتمد عليه حياة الزرع، كان الناس يتوسلون إلى مثل هؤلاء – الذين يضنون أنهم خارقو القدرات – فيطلبون من أحدهم أن يستعين بقدرته حتى ينزل المطر، فيخبرهم بأنه سيذهب في خلوة إلى سفح الجبل، وقد يمكث هناك أياما قد تطول، وعندما يراقب الجو، ويتطلع إلى السحب فإنه– بخبرته الطويلة– يعرف السحابة المطيرة من السحابة غير المطيرة، ولابد أن يكون أيضا على علم باتجاهها، فإن كانت قادمة نحو أرض قومه، أسرع بالنزول من سفح الجبل، وهو يهلل بقدوم الخير، ونزول المطر، وبالفعل يمر السحاب الممطر بعد دقائق أو ساعات، ويسقط من مائه ما يسقط ويرجع الناس ذلك إلى بركات وليهم، فيصبح بينهم ذا شأن عظيم، أو قد لا يسقط المطر في أحيان

قليلة وعندئذ يكون الجواب: إن الله غاضب عليكم، ولابد من إرضائه[30].

وبديهي أن هذه الأمور لا تجد المناخ المناسب لوجودها وتطورها إلا في المجتمعات التي تجهـل عن الظواهر الطبيعية كل شيء، لأنه،لا يمكن للمطر– أو لأي ظاهرة أخرى – أن ينزل أو يمتنع عن النزول، إلا بجملة من الشروط والعوامل. لا شيء يحدث من تلقاء نفسه أو من دون محدث[31] لكـن جهل القوم بالظواهرالطبيعية يحملهم على الاعتقاد أن لفلان قـوة في إحداث هذه الظواهـر أو منـع حدوثها أو التقليل من خطرها وشرها وإبعاده. ومن ثمة يحضى بينهم بساطان وقدسية عظيمة، كل هذا لا أساس له من الصحة.

ومن أنواع هذا التفكير المشعـوذ والسحـري، ما نجده متداولا في الأرياف من أن من أراد لمحصولاته النمو والوفرة، فعليه أن يضع البذرة في وقت نمو القمر، وأن يقتلع الحشائش فـي وقت تناقص القمر، فإن القمر والمحصولات تنمو معا، والقمر والحشائش الضارة تتناقص معا[32].

والجدير بالملاحظة أن الإنسان – وفي بعض الأحيان حتى العالم – عندما يعجز ويفتقد الحل الصحيح والسليم الذي يفسر كيفية حدوث الظاهرة، يلجأ ويستعين بكل الحلول بما فيها الغيبية، المهم لديه الحصول على المنفعة ويطمئن عقله الذي لا يطمئن إلا عندما تتوفر لديه الأسبـاب التـي وراء حدوث الظاهرة. فالخرافة عبارة عن إقامة علاقات غيبية بين الأسياء[33].

ولابد أن نميز هنا بين الأسطورة الأصلية التي تعد جزءا من التجربة، أنتجها الخيال، وهي ليست وهما، وبين أقاصيص الأقدمين التي ذكرنا بعضها والخرافات وحكايات المشعوذيـن التي – وإن كانت هي أيضا تتضمن عناصر أسطورية– يوسعها الكهنة والمشعوذين وينمونها بخيال زائف قصد الاستغلال والتسلط. لكن ما هو الفرق بين الخرافة والأسطورة؟ هل للأسطورة قصد وغاية ؟ هل لها رسالـة، أو دور ووظيفة تؤديها في المجتمع؟ الأسطورة لغة وكلام، لكنها ليست أي كلام، فاللغة تحتاج لشروط خاصة وعناصرأخرى كي تصبح أسطورة، ونظام اتصال ورسالة[34]. ويعني ذلك أنها طريقة دلالية، وتؤدي وظيفة اجتماعية يلجأ إليها الناس لقضاء بعض ما تعذر قضاؤه بالطرق العادية. وهي على حد تعبير رولان بارت في كتابه: الأسطورة: "الأسطورة كلام يختاره التاريخ" أي أنها كلام من نوع وبناء خاص،

يقصد لتحقيــق وأداء رسالة، لكن لها حدودها التاريخية، أو مدة صلاحية. فالأسطورة متى أدّت المطلوب منها فــي زمانها ومجتمعها، ماتت وزالت، بسبب تطور وتقدم المجتمع. فالزمن عدو الأسطورة. إذ للتاريــخ دور مزدوج ومتناقض يؤديه للأسطورة، فهو الذي يحييها وهو كذلك الذي يقتلها، لأنه هو الذي يوفر الظروف الاجتماعية العامة التي تحتاج إليها الأسطورة، فتولد، ثم بعد مدة تطول أو تقصر، تظهــر للوجود ظروف جديدة هي التي تعصف بالأسطورة فتقتلها.

لنسرد مثالا عن ذلك: تقول الأسطورة المصرية القديمة 'تيفون'، التي تحاول تفسير خلق الجنسين أنه لم يكن على الأرض جنسان قبل أن يؤثر القمر على الأرض، بل كان هناك كائن سري واحــد، مذكر مؤنث معا. وتحت تأثير إزيس وأوزيريس المتعاقب، تم الفصل بين الجنسين[35].

أو تلك التي تفسر كيفية انتشار الشر في الأرض، فتروي الأسطورة بأن 'باندورا' هي المرأة الأولى التي أرسلها زيوس كعقاب للبشر الذي حمل لهم 'بروميتيوس' النار التي سرقها من السماء، وقــــد وهبها الإله كل الصفات المغرية بالإضافة إلى جرة مغلقة تحتوي كل الشرور، لكن الفضول دفعها لأن تفتح الجرة مما أدى إلى نشر هذه الشرور في الأرض[36].

هذه القصص قد تقنع الشعوب التي عاصرتها، بسبب جهل هذه الشعوب، لكن بعد ذلك، يكشف التاريخ زيفها وسذاجتها. لكننا نعود ونقول أن الأسطورة تؤخذ بعين النظر والاعتبار، لأنها تساهــم في الكشف عن حقيقة ما، وإن تعذر إثباتها، أو اتصفت بغموض النص النظري، فهي مجسدة محسوسة وإن تدعي أن صدقها لا يمكن الطعن فيه، وتطالب المؤمــن بالاعتــراف بهــــا، وإزاء المتشكك لا تحاول تبرير نفسها، ولم يكتف القدامى بسردها، بل مثلوها روائيا لاعتقادهم أنها تتنشــط بالإلقاء الجهوري، وخير مثال عن التمثيل الدرامي للأسطورة، تناول القربان المقدس[37].

كل ذلك يعني أن الأسطورة – في المجتمع اليوناني مثلا– كانت أمرا هاما، يرتبط أشد الإرتبــاط بالحياة ومصائر الناس. فلقد ظهر هذا التمثيل الدرامي أو التراجيديا في المجتمع اليوناني في نهايــــة القرن السادس قبل الميلاد[38].

والتراجيديا ليست شكلا من أشكال الفنون فقط، إنها تنظيم اجتماعي أفردت له المدينة اليونانيــة أو الحاضرة[39]. أي الدولة بكاملها في لغة

عصرنا، مكانة هامة إلى جانب أجهزتها السياسية والقضائية من خلال تأسيس المسابقات الشعرية. وإذا كانت التراجيديا أو الشعر الملحمي تبدو بذلك أكثر من أي نوع أدبي آخر راسخة في الواقع الاجتماعي، فإن ذلك لا يعني أنها انعكاس لهذا الواقع، إنها لا تعكس الواقع لتبرره، بل بتضعه موضع تساؤل[40]. يعني أنه كان لأصحاب هذه القصائد نظرة عميقة تتأمل وتسائل المجتمع في ظواهره. قلت فيما سبق أن الأسطورة تكشف عن حقيقة مهمة، أو كان لها دور وشأن عظيم في مجتمع كاليونان، وذلك للأسباب التالية فيما أعتقد:

– إنها، وإن كانت لا تقرر أو تعلن حقائق جاهزة، فهي تحاول تقسير ظواهر، لكن بطريقتها تلك، يأتي من ينتقدها ويتساءل عن حقيقة مضمونها وطبيعته، فيؤدي ذلك إلى بحث جديد، وشيئا فشيئا حتى نصل إلى إبداع. وبهذا الشكل فالأسطورة فرصة ودافع للإبداع.

– تقريب الحكام والملوك للكهنة والعرافيين والاستعانة بهم كأداة ضرورية لإبقاء الحكم والدولة. وهو أمر مركزي في حياة الشعب حيث يبقى ببقائه ويزول بزواله. والغريب في الأمر هو أن الظاهرة لا تزال حاضرة في أيامنا هذه، إذ تكشف المعلومات أن الرئيس الأمريكي السابق 'جورج بوش' استعان بالمنجمين عندما إتخذ القرار النهائي بالهجوم على العراق، ومن قبله استعان ' هتلر' بالمنجمين في إتخاذ قراراته العسكرية والسياسية وربما كانت نصائحهم هي التي أدّت إلى تدمير البوندستاغ في قلب برلين[41].

– حفظ ونظم القصائد الملحمية التي تتناول الأسطورة من قبل شخصيات بارزة صار لها شأن هام في المجتمع مثل الشاعر اليوناني هوميروس الذي سجات قصائده المطولة كالإلياذة – التي بلغت نحو ستة عشر ألف بيت[42]

– تاريخ أحد أعظم وأعرق المجتمعات البشرية. هذه القصيدة بالذات التي يدور موضوعها حول حرب 'طروادة ' تعد تراثا إنسانيا يعتمد عليه، ليس فقط في التاريخ للأحداث التي ساقها الشاعر في ملحمته، ولكن لمعرفة اتجاهات التفكير لدى الشعب اليوناني والتراث الأسطوري، الذي يستمد منه تاريخه وعقائده ووصف للحياة اليومية لهذا المجتمع[43].

وهذه النظرة بالضبط هي التي يمثلها علماء النفس المعاصرين أمثال سيقموند فرويد وأشهر تلامدته: يونغ، يوهان ياكوب، وغيرهم من خلال البحث في هذا التراث واستنطاقه، إذ يرون في الأسطورة والحلم

تعبيرا رمزيا لحقائق دفينة، ومن هؤلاء أيضا عالم النفس الألماني إريش فروم الذي يحـــاول البحث في الأسطورة ليفك رموز اللغة المنسية، كما يسميها، لغة الحكايات والأساطير حيث يقـــول:

تقدم الأسطورة مثلما يقدم الحلم تماما قصة تجري حوادثها في المكان والزمان وتعبر بلغة رمزيـــة عن أفكار فلسفية ودينية، فإذا لم نفهم معناها الحقيقي كنا أمام أمرين لا ثالث لهما: فإما أن تكـــــون الأسطورة صورة بسيطة للعالم والتاريخ وسابقة للعلوم الحديثة، أو أن تاريخ الأسطورة حقيقية، وأن علينا أن نرى فيها رواية مطابقة للحقيقة تحكي عن حوادث جرت في الواقع الحقيقي[44].

فأقل ما في الأسطورة التي تضمنها لدى اليونان، الشعر الملحمي، أنها ذاكرة هذا الشعب، خزان العبر، ويمكن للباحث في التاريخ أن يجد فيه الكثير، بل، ربما يجد فيه ماتعجز عنه المصادر التاريخيـــة القيّمة، فإنه يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر.

ولعل آخر سبب في أهمية الأسطورة هي أن الناس مقتنعون بمضمونها وفعاليتها والغاية منها، إذ أنها وسيلة لاسترضاء الآلهة وطلب المعونة منها ولذا فقد حددت مصير الكثير من الناس والمجتمعات، وقد ذهب الكثير ضحيتها. فكلنا يذكر ضمن ما وصلنا من تراث الفراعنة، أن النيل مثلا كان يفيض نتيجة غضب الآلهة أو يجف، أو أن الأمطار تشح ولا تسقط عقابا على ذنب. ومن هنا كان الحل المتاح هو التقرب للآلهة، فهي تعطف– في نظر هذه المجتمعات– على من يجزل لها العطاء أي من يتوسع في تقديم القرابين [45]. فكانوا يقيمون الأعياد في بدء المواسم الخصبة، ويقدمون الضحايا قربانا لها، مختارين من بينهم أحسن شبابهم وأجمل فتياتهم، ويذبحونه تكريما لآلهة الموسم[46]، ولم يكن هؤلاء المضحى بهم من طبقة الفقراء والعبيد وحدهم كما يمكن أن يعتقد الكثير، بل قد مست العملية كذلك طبقة الأعيان والنبلاء، بل بالعكس، فكلما كان الطلب من الآلهة عظيما، كلما عظمت الفدية وعظم شأن وهوية المضحى به. إننا نقـــرأ في قصيدة أوليس التي تدور حول عزم الملك أجامنون– وهو قائد الجيوش اليونانية كلها في حرب طروادة– على التضحية بابنته 'افيجينيا' حتى تسمح الآلهة لأسطول الإغريق بأن تبحر إلى طروادة[47].

وإننا نجد ما يشبه هذا المصير الدرامي الذي تنتهي إليه بعض المعتقدات الأسطورية في عهد الأمبراطورية الرومانية الغربية تحت ظل المسيحية حين دمرها البرابرة، وصار القساوسة والرهبان يختلقون

معجزات قديمة أو جديدة، ويغذون الشعب بالجهل والخرافات، ويغررون به لسلبه، وثمـــة قساوسة كانوا يدفعون بالأمراء إلى حرق من يتجرأ على الشك في أحد معتقداتهم، بل إلى حرق اللاهوتيين (رجال الدين) أنفسهم إذا ساورهم حلم مخالف لحلم الرؤساء المقربين من الكنيسة [48]، ناهيك عن قتل كل مخالف لهم.

ولقد دفع العلماء نصيبهم من هذه الفاتورة، حيث كان العصر الوسيط عصرا ساخنا من الناحية الفكرية، انطلاقا من الثورة العلمية التي أحدثها نيكولا كوبرنيكوس وكبلر وغاليلي بخصوص قوانين الطبيعة. ولقد كانت القوة الفكرية المهيمنة هي الكنيسة وحدها، فخلال العصر الوسيط كله، وقسم كبير من عصر النهضة، مثلت الكنيسة السلطة الفكرية المهيمنة على كل أوروبا[49]. وهذه السلطـــة الدينية والعلمية والفلسفية قد وقفت موقف العداء وحاربت كل تجديد ومجدد. فهذا هوبز يقول عـــن غاليلي الذي استقبله في (بيزا) بحفاوة منقطعة النظير، تركت أثرا قويا في نفسه، كما أن نقاشه معـــه جعله يحترمه احتراما كبيرا عبر عنه قائلا:

" غاليليو. . كان أول من فتح لنا أبواب الفلسفة الطبيعية الكلية التي هي معرفة الحركة، ومن ثم فليس في استطاعة عصر الفلسفة الطبيعية، أن يعد شخصا أخرأرفع منه منزلة [50]. هذا الرجل (غاليلي) والمصير الدرامي الذي لقيه يذكرنا بمصير سقراط الذي حكم عليه بالإعدام ظلما وهو صاحب حق. فهذا الرجل قد تجرع مرارة الاضطهاد من قبل الكنيسة التي أعدمته واضطهدت غيـــره من فيزيائيي وفلكيي القرنين السادس والسابع عشر[51]، وانتهـــى أشخاص أمثال فانيني وميشيل سرفييه برونو في المحرقة[52].

فلقد استغل هؤلاء أنهم وكلاء عن الرب في الأرض وأنهم يعبرون عن إرادته، فقتلوا العلماء لأنهم عارضوهم وأخذوا يكشفون زيفهم واستغلالهم الناس أبشع استغلال، لتحقيق المزيد من الثراء في زمن لم يجد فيه عامة الناس رغيف الخبز يسدون به رمقهم، باسم صكوك الغفران[53]، إلى أن بلغ الاستغلال حدا لا يطاق، قامت الثورة الفرنسية عام 1789م رافعة الشعار التالي: ' اشنقوا آخر ملـــك بأمعاء أكبر قسيس '، لأن تلك الأزمة الخانقة التي آلت إليها أوربا كلها في القرون الظلامية كان وراءها: الملوك ورجال الدين فأطيح بهم وسلبوا سلطانهم.

خلاصـــــــــة:

وهكذا نقول في خلاصة الحديث عن المعرفة التي امتلكها العرافون والكهنة وتضمنها الفكـــــــر الأسطوري:

1 – بالنسبة للخرافات وكل أشكال الشعوذة والدجل، وادعاء الكهنة أنهم وكلاء عن الرب أو يمثلون إرادته، فهذا كله كذب وأن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، ولقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيـــرة تشير إلى ذلك إشارة واضحة:

– يقول المولى تبارك وتعالى: وما كان الله ليطلعكم على الغيب (سورة آل عمران آية 179).

– وقوله أيضا: وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمت الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين (سورة الأنعام. .آية 59).

– إلى آخر ذلك من الآيات القرآنية التي حسمت هذا الأمر. إذن فلا مجال لادّعاء عراف أو كاهن أنه يعلم ما لا يعلمه غيره، إذ لو عرفوا الغيب لتجنبوا الضرر ولاستكثروا من الخير، كما جاء في القرآن الكريم حيث يقول الله تبارك وتعالى: قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء (سورة الأعراف. .آية 188).

إذن لتكن الأمور واضحة، دعونا نقول أن الكهنة والعرافين لم يمتلكوا أية معرفة صحيحة أكّدها العلم أو سيفعل لاحقا، بل بالعكس، فهم من أخّر ميلاد الحقائق العلمية.

2 – بالنسبة للأسطورة، فالأمر مختلف، إننا نقول أنها تحتاج إلى إعادة نظر وتأمل واستنطاق ما تحمله من معاني ومضامين الشعوب القديمة. فهي كلها كتبت بلغة واحدة، لغة رمزية، لغة لها منطقها الخاص وقواعدها، وتراكيبها، وأكثر من ذلك ظروفها التاريخية التي أفرزتها: لغة يجب علينا أن نفهمها ونتعلمها. فهي لا تزال عذراء تزخر بالكنوز الدفينة عن أقوام لا نملك عنهم أكمل المعرفة. فهي إذن أحد أهم ينابيع الحكمة البشرية التي إذا لم نفهمها، نخسر جزءا كبيرا من تراثنا[54].

ليست الأسطورة مجرد قصص خرافية، لكنها تحمل مضمونا فلسفيا يتوافـــق مع رؤى وأفكـــــار وظروف المجتمع الذي نشأت فيه. وهي بهذا تعد مجالا خصبا يستثمره الباحثون في إدراك العلاقة بين الإنسان والطبيعة[55]. تذكرون أسطورة باندورا التي روت أن الشّر كان في الجرة فوق رأس المرأة التي بعث بها الإله زيوس، ثم– بسبب الفضول

– كسّرتها المرأة، فانتشر الشر علـــى الأرض. هذه الأسطورة التي ترجع الشر إلى قوى مفارقة للطبيعة، تجد صدى لها في أفكار الفلاسفة عبر التاريخ: ففي الصين القديمة، نجد في القرن الثالث ق.م. مدرسة مشهورة اسمها (المشرع) بموجبـــها كانت تؤمن بأن الإنسان في الأصل ذو طبيعة شريرة. .وفي الحقبة الزمنية ذاتها أكد كتاب (الشاسترا) في الهند أن الإنسان بطبعه عاطفي وجشع، وإنه إذا ماترك له العنان، فإن العالم سيتحول إلى(ورشة للشيطان) يسود فيها منطق السمك. ونجد نظير هذه الآراء في مؤلفات العديد من كتاب أوربا الغربية الحديثة، فبالنسبة لجون بودان كانت حالة الإنسان الأصلية هي حالة الفوضى والعنف والقوة، ووصف توماس هوبز الحياة البدائية بأنها كانت حالة حرب مستمرة [56].

وهكذا، فإنك عندما تضع أسطورة يونانية، مثلا، نصب أعينك، وتمعن في تأملـــها وتحليلها، وتحاول البحث عن مدلولاتها التي تنطوي عليها أو الرموز التي تمثلها، إنـــك لتدرك أن وراء الأسطورة، توجد ذهنية قادرة – إذا امتلكت الوسيلة الضرورية– على إنتاج مادة معرفية جديرة بالطلب.

يقول الأستاذ يوسف كرم أن الشعر اليوناني هو إما قصصي و وصفي تمثيلي أو رمزي. إنه عبارة عن تأويل القصص والأساطير، واستخلاص ما تنطوي عليه صورها ورموزها من معان علمية، ومثل هذا التأويل قديم، وكان شائعا في عصر النهضة[57].

على أن بعض المفكرين لا يقفون عند هذا التقدير المتواضع للأسطورة، بل يذهبون أبعد من ذلك، مثل الأستاذ ف م كورنفورد الذي يعتبر أن الفلسفة الأولى بقيت أقرب إلى بناء خرافي منها إلى نظرية علمية[58]. وكذا الأستاذ دوكاسيه حيث يقول: ' وفي الوقت الذي تمّ فيه، عند الشعوب الآرية هـــذا الانتقال من الفكرة الخرافية إلى الفكرة العقلية البحتة وإلى الفلسفة، تمت اختيارات فاصلة ما فتئـــت تسيطر حتى الآن على جميع عادات الغرب الفكرية'[59].

الهوامـــــــــش:

(1) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ج1، دط، 1982، ص 198.
(2) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ج2، دط، 1982، ص 102.
(3) بيير لكونت دي نوي، مصير الإنسان، نقله إلى العربية خليل الجر، المنشورات العربية، المطبعة البولسية جونيه، د ط، 1967 ، ص 248.
(4) جان بيير فرنان وبيير فندال ناكيه، الأسطورة والتراجيديا في اليونان القديم، ترجمة حنان قصاب حسن، دمشق، الأهالي للطباعـــة والنشر والتوزيع، ط 1، 1999، ص 152.
(5) أحمد بدر، أصول البحث العلمي ومناهجه، الكويت، وكالة المطبوعات الكويتية، ط 2، 1975، ص 37.
(6) روبرتا كلاتسكي، ذاكرة الإنسان، ترجمة جمال الدين الخضور، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، د ط، 1995، ص 13
(7) جون كلود غيو، الذاكرة، ترجمة جورج يونس، المنشورات العربية، سلسلة ماذا أعرف 27، دط، دت ،ص 13.
(8) أشلي مونتاغيو، البدائية ،ترجمة محمد عصفور، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، د ط، 1982، ص 21.
(9) المرجع نفسه، ص 45 و46.
(10) ماري جوزيه كوشايير، الذاكرة والنجاح، ترجمة عمر كربوح، دمشق، دار طلاس للدراسات والنشر، 1992 ،ط1، ص28.
(11) دينيس لويد ،فكرة القانون، تعريب سليم الصويص، مراجعة سليم بسيسو، الكويت ،عالم المعرفة، 1981، د ط، ص 16.
(12) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، بيروت ،دار القلم ،دت ،دط ،ص 352.
(13) إبراهيم دسوقي أباضة وعبد العزيز الغنام، تاريخ الفكر السياسي، بيروت ،دار النجاح، 1973، دط، ص 196.
(14) سالم يفوت، الفلسفة والعلم في العصر الكلاسيكي، المركز العربي الثقافي، بيروت، 1989، ط1، ص 165.
(15) أحمد فؤاد عبد الجواد عبد الحميد، البيعة عند مفكري أهل السنة والعقد الاجتماعي في الفكر السياسي الحديث، دار قبـــاء، القاهرة، 1993، د ط، ص 245.
(16) بيير فرانسوا مورو، هوبز فلسفة، علم، دين، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيـــروت،
(17) سالم يفوت، الفلسفة والعلم في العصر الكلاسيكي، مرجع سابق، ص 167.
(18) إميل بريهيه، تاريخ الفلسفة في القرن 17، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، 1983، ص 182.
(19) محمد نصر مهنا، علوم سياسية، دراسة في الأصول والنظريات، دار عطرة، القاهرة، 2005، د ط، ص 101.
(20) حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ط2، 222.
(21) روبرتا كلاتسكي، ذاكرة الإنسان، ترجمة جمال الدين الخضور، مرجع سابق، ص 288.
(22) بيير دوكاسيه، الفلسفات الكبرى، ترجمة جورج يونس، إشراف كمال يوسف الحاج، منشورات عويدات، بيروت، 1983، ط 3، ص 13.
(23) ماهر عبد القادر محمد علي، المنطق ومناهج البحث، دار النهضة العربية، بيروت، 1985، دط، ص 101.
(24) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، مرجع سابق، ص 79.

(25) عباس محمود العقاد، فرنسيس بيكون مجرب العلم والحياة، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيوت، د ت، ص 123.
(26) عبد الحسن صالح، التنبؤ العلمي، ومستقبل الإنسان، عالم المعرفة، الكويت، 1981، د ط، ص 11.
(27) ممدوح درويش مصطفى وإبراهيم السايح، مقدمة في تاريخ الحضارة الرومانية واليونانية، المكتب الجامعي الحديث، الأسكندرية، 1999/1998، ص 102.
(28) هنري فرانكفورت وآخرون، ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا إبراهية جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،1982،ط3،ص19.
(29) المرجع نفسه، ص 25.
(30) عبد الحسن صالح، التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان، مرجع سابق، ص 14/13.
(31). Didier Julia ،Dictionnaire de la philosophie ،Larousse ،éd 1982 ،Paris ،p14
(32) عبد الفتاح محمد العيسوي وعبد الرحمن محمد العيسوي، مناهج البحث العلمي في الفكر الإسلامـــي والفكر الحديث، دار الراتـــب الجامعية، بيروت، 1997/1996، د ط، ص 39.
(33) المرجع نفسه، ص 34.
(34) خليل أحمد خليل، مستقبل الفلسفة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1981، د ط، ص 23.
(35) المرجع السابق، ص 25.
(36) جان بيير فرنان وبيير فندال ناكيه، الأسطورة والتراجيديا قي اليونان القديم، مرجع سابق، ص 153.
(37) هنري فرانكفورت وآخرون، ما قبل الفلسفة، مرجع سابق، ص 18.
(38) جان بيير فرنان وبيير فندال ناكيه، الأسطورة والتراجيديا قي اليونان القديم، مرجع سابق، ص 21.
(39) جان توشار وآخرون، تاريخ الفكر السياسي، ترجمة علي مقلد، الدارالعالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،1983، ط 2،ص11.
(40) جان بيير فرنان وبيير فندال ناكيه، الأسطورة والتراجيديا قي اليونان القديم، مرجع سابق، ص 25.
(41) عماد مجاهد، التنجيم بين العلم والدين والخرافة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1998، ط 1، ص 24.
(42) ممدوح درويش مصطفى وإبراهيم السايح، مقدمة في تاريخ الحضارة الرومانية واليونانية، مرجع سابق، ص 251.
(43) محمد الخطيب، الفكر الإغريقي، دار علاء الدين للنشر والتوزيع، دمشق ،1999، ط 1، ص 7.
(44) إريش فروم، الحكايات والأساطير والأحلام، ترجمة صلاح حاتم، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، 1990، ط 1، ص 145.
(45) أحمد عثمان، الشعر الإغريقي تراثا إنسانيا وعالميا، عالم المعرفة، الكويت، 1984، ص 62.
(46) جورج حنا، قصة الإنسان، دار القلم، بيروت، 1979، ط 6، ص 16.
(47) ممدوح درويش مصطفى وإبراهيم السايح، مقدمة في تاريخ الحضارة الرومانية واليونانية، مرجع سابق، ص 94.
(48) أندريه كريسون، تيارات الفكر الفلسفي من القرون الوسطى حتى العصر الجديث، ترجمة نهاد رضا، منشورات عويـــدات، بيـــــروت، 1982، ط 2، ص 269.
(49) سالم يفوت، الفلسفة والعلم في العصر الكلاسيكي، مرجع سابق، ص 21.
(50) المرجع السابق، ص 151.
(51) المرجع نفسه، ص 10.

(52) أندريه كريسون، تيارات الفكر الفلسفي من القرون الوسطى حتى العصر الجديث، مرجع سابق، ص271.
(53) إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة (من ديكارت إلى هيوم) دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2001، د ط، ص46.
(54) إريش فروم، الحكايات والأساطير والأحلام، مرجع سابق، ص 16/15.
(55) ممدوح درويش مصطفى وإبراهيم السايح، مقدمة في تاريخ الحضارة الرومانية واليونانية، مرجع سابق، ص 102.
(56) دينيس لويد، فكرة القانون، تعريب سليم الصويص، مرجع سابق، ص 15.
(57) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، بلا، د ط، ص 46.
(58) جان بيير فرنان، أصول الفكر اليوناني، ترجمة سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2008، ط 2 ص 93.
(59) بيير دو كاسيه، الفلسفات الكبرى، ترجمة جورج يونس، مرجع سابق، ص 14.